٥ — صور من الحياة

قـــلوب من حجر

للأستاذ كامل محمود حبيب

قال لي صاحبي : كان ذلك منذ سنوات ، والشباب نضير ، والإهاب غض ، والعود ريان ، والزمان مبتسم ، والحياة مشرقة ؛ والقلب — إذ ذاك — معطل من نزوات الطيش ، والفؤاد خلو من نزعات الحق ، والروح عارية من دفعات النزق ، وأنا — حينذاك — أب وزوج . ولا عجب فلقد عشت عمراً من عمري قنوعاً أرى الدنيا حوالي تموج بالهوى والغرام ، وأنا على حيد الطريق أنظر إلى الركب فلا أستطيع أن أمد يداً ولا لساناً لأني رجل ربي النشأة قروي المربى ، طبعتني روح الريف بسمات الخجل والانزواء ، ومرهت تعاليم الدين الحياة في ناظري فصبغتها بألوان من الألوان القاتمة كبلتني بقيود زائفة ورثتها غصباً فدمغتني بالتزمت والانطواء ، ثم اختار لي أبي الزوجة على نسق حرمني حق الاختيار والرأي ، في حين أني كنت موظفاً في الحكومة أبدو رجلا بين رجال ، فمشت إلى جانبها لا أشعر نحوها إلا بالسيادة والسيطرة ، ولا تحس هي نحوي إلا بالخضوع والاستسلام ، وانطوت الأيام .

وشعرت بأني أعيش هنا — في القاهرة — غريباً لا أجد أهلي ، وهم في القرية ، ولا أستطيع أن أغتمر في خضم المدنية ، وأنا ريفي الروح ، ولا أن أعاور زملائي في الديوان أسباب المتعة واللهو ، وأنا أنكمش على نفسي وعلى ديني ، فرحت أهيىء السلوى والعزاء في الدار ، وأداري نقصي باللباس الأنيق والمسكن الجميل وعندي الخفض والسعة فلا تعوزني المادة ولا ينقصني المال

هذه الحياة الرتيبة كانت بغيضة إلى نفسي لأنها تبعث في الملل والضيق ، وتنفث في الفراغ والدعة ؛ فلا أجني اللذة في معترك الحياة ، ولا أرشف السعادة من تقلبات العيش ؛ فركد ذهني وانحطت خواطري ووهى عقلي ، ولكني لم أجد عنها مصرفاً إلا في أن أنتقل من مسكن إلى مسكن وأفزع من دار إلى دار لا أحس الهدوء ولا القرار .

واستقر بي القلق — آخر الأمر — في مسكن من الطبق الثالث من عمارة ضخمة

وفي ذات صباح ، خرجت — كدأبي — إلى عملي في الديوان ، فما راعني إلا أن أرى نفسي — على حين فجأة — قبالة فتاة هيفاء القد ، بانة العود مشرقة الجبين ، رقيقة الحسن ، تختال في روعة الشباب وتزهو في غضارة العمر ، تتألق رونقاً يخطف البصر ، وتشع جمالا يسحر اللب ، وتنفح عطراً يلفح الفؤاد ؛ فوقفت — برغمي — لحظة ... وأحست هي بي فلم تعرني اهتماما — بادىء ذي بدء — ثم رأت نظراتي تغمرها بالنهم والرغبة فاندفعت صوب مسكن جاري تغلق الباب من دوني في هدوء .

وانطلقت أنا إلى عملي في حيرة وذهول أسائل نفسي وقد انطبعت صورتها في ذهني ، وما في خاطري سوى فكرة واحدة تزحمه : يا لقلبي ! إنها نفور شباباً وفتنة ، شباباً يعصف العقل وفتنة تزلزل القلب فمن عسى أن تكون ؟ لعلها ربة الدار !

وشغلتني الفتاة الجميلة عن عملي فما أنصرف عنها ولا يبرح طيفها خيالي . وانا أحس اللذة والسعادة كلما تراءت لي من خلال تصوراتي تبسم في رضا ورغبة ، وأشعر بالضيق والملل كلما بدا لي أنها تدفعني عنها في غير هوادة ولا لين لأنها أغلقت من دوني الباب

وترادفت الأيام وأنا أحتال للأمر فانفتح أمامي الباب وتبسطت أسارير وجه الفتاة وخف جماحها ، ثم سكنت نفس إلى نفس واطمأن قلب إلى قلب وارتبط سبب بسبب . واستبشرت روحي فبدت على سمات الزينة والأناقة خيفة أن تقع عين الفتاة مني على ما يبعث فيها النفور والاشمئزاز ... ورحت أتزين كل صباح فأسرفت في الزينة وأتانق فأفرط في الأناقة ، لا أعبأ بنظرات الريبة والشك تنطق بهما عينا زوجتي الريفية المسكينة ، وهي تنضم على أسى عاصف يوشك أن يقد قلبها ... قلب الأنثى الضعيفة المستكينة ... ولكنها لا تستطيع أن تكشف لي عن خبيئة نفسها خوفاً مني وفرقاً .

مسكين أنت يا من تطوي عمر الشباب في زاوية من الدار

تعكف على خيالات من الفضيلة والشرف ، تتعبد لها فى خضوع وذلة ، ثم لا تغتمر فى لجة الدنيا بقلب الرجل ولا تكافح أعاصير الحياة بقوة العزم ! مسكين أنت لأنك تعيش عمرك طفلا فى دنيا المردة وضاوياً ، فى جيل من المبالغة ! مسكين لأنك لا تدرى أيان تزل قدمك وأنت على حافة الهاوية لا تستطيع أن تتماسك من وهن.

مسكين أنت أيها الربيق الساذج حين تجمح بك نزوات الطيش وقد اكتملت رجولتك واستوى عودك وتجاوزت سن الحمق ، فتسول لك نفسك أمراً فتطاوع أهواء قلبك فتطير فى إثر فتاة المدينة ... فتاة الشارع ، فتصرفك عن الدار والزوجة والولد ، وتسلبك هدوء النفس وراحة الضمير !

وجذبتنى ابتسامة الفتاة فانطلقت على آثارها أسلس وأنقاد ، فسيطرت على قلبى وعقلى معاً ، فما استطعت أن ارتدع عن غى ، ولا أن أرعوى عن شطط ، يوم أن علمت أنها زوجة جارى الذى لا أعرفه .

وتلاقينا على ميعاد فى منأى عن الرقيب ، ترشف معاً رضاب الهوى المحض على حين غفلة من زوجى ومن زوجها ، لا أحس الضمة ولا الخسة ، ولا تستشعر هى سفالة الخيانة والسقوط ... تلاقينا معاً فى كنف الشيطان وقد مات فينا الضمير والشرف والكرامة جميعاً .

وغبرنا زماناً أخاتل زوجتى وتخدع هى زوجها . ولست فيها الرقة والظرف فوجدت إلى جانبها السعادة التى افتقدت منذ زمان . وخيل إلى أن فى حديثها رنات لحن موسيقى تهتز له أوتار قلبى فى شدة وعنف ، وأن فى عينيها شعاعاً آسراً يجذبنى إليها بأمراس ، وأن فى دلالها معانى من أسوار السجن تلفنى فى ثنايا فتحجبنى عما عداها ؛ فاستسلمت فى رضا ولذة . على حين قد استحالت دارى إلى مكان بغيض ، واستحالت زوجتى إلى فتاة كريهة ، وباء ابنى منى بالاهمال والهوان .

وتواعدنا — ذات مرة — أن نتلاقى أصيل يوم معلوم من أيام الربيع ، وكنا إذا تواعدنا لا نختلف فى الميعاد ، وجاء اليوم الموعود فخفق قلبى للقيا الحبيبة ، وهفا فؤادى نحو الحديث الساحر واشتاقت نفسى إلى اللذة الحرام ، فقضيت ساعات الضحى خفيف الحركة مشرق الوجه طلق المحيا ، يهزنى الخيال وتطربنى الفكرة . ثم انطلقت عند الظهر إلى دارى أهيىء نفسى للسعادة المنتظرة ، ورقيت السلم أثوب رشاقة وطرباً ، فما أفزعنى إلا صوت صراخ ينبعث مختنقاً من أعماق مسكن جارى ... مسكن الفتاة التى أحب ، فدق قلبى دقات الرعب ، وبدا على وجهى شحوب الخوف ، وران على ذهنى اضطراب الأسى ، وسرت فى مفاصلى رعدة الجزع ؛ فوقفت لدى الباب أتسمع .

ترى ماذا عسى أن يكون خلف الباب ؟ ووقفت حيناً متردداً انتفض وفى رأيى أن القدر يصنع حادثة ذات بال من وراء الجدار . وسولت لى مخافتى فدفعت الباب فاندفع . . . فإذا أنا أمام الفتاة التى أحب ، وإذا الخادم الصغيرة تلقى بنفسها بين يدى مستجيرة وهى تصرخ صراخاً يفتت الكبد ويصم الأذن ، وإذا بالفتاة الجميلة تندفع صوبى هائجة تهدر ، تلطمنى بكلتا يديها فى غيظ ، وتدعنى خارج الدار فى عنف ، وتقذفنى بأقذع الشتيمه وأحط السباب .

وفزعت من أمام الفتاة الثائرة ، وبين يدى الخادم المسكينة تتشبث بى وتتضرع

وقالت لى الخادم بعد أن أفرغ روعها وهدأ خوفها: «أرأيت يا سيدى السجان وهو يقسو على السجين فى غلظة وفظاظة لا تأخذه به رأفة أبداً ؟ أما أنا فلقد دأبت سيدتى الجميلة على أن تقضى صدر النهار فى الشارع وطرفاً من الليل فى اللهو ، لا تسكن إلى الدار إلا ريثما تعارى نفسها وتستكمل زينتها ، ثم تنطلق إلى هدف أو إلى غير هدف ؛ وسيدى رجل عمل لا يستقر فى البيت إلا ساعة يطير بعدها إلى عمله ؛ أما أنا فقد عشت بينهما زمانا ضحية الجوع والعرى والوحدة . وضاقت نفسى بالحياة فى هذا السجن الوضيع وأنا وفية طويت عمرى فى الخفر أنعم بالعمل والحركة وأنشق نسمات الحرية ، لا أومن بالقيد ولا أطمئن إلى ذل ؛ فطلبت إلى سيدتى فى خضوع أن ترسلنى فأسافر إلى أهلى فى القرية ، فرفضت . وألححت فرفضت . وحين وجدت من العناد والإصرار خشيت أن أفر من الدار فيعجزها أن تجد خادماً غيرى ، فغلقت الأبواب وانغلقت هى إلى غايتها . وبلغ منى اليأس غاية نفد عندها الصبر فثرت فى وجهها ، ورأت فى ثورتى معانى التبجح وسوء الأدب فأمسكتنى بيد من حديد وراحت تكويني بحديدة محماة وإن عينيها لتضطرمان بنار القسوة والفظاظة ، وأنا